

## تمهيد

لا نجد بين الكتب العديدة المخصصة للإسلام، سوى القليل ممّن تناول الشريعة الإسلاميّة بصفقتها تلك، على الرغم من أنها الموضوع الذي يثير أسمى الجدالات الاجتماعيّة واللاهوتيّة والسياسيّة، سواء داخل الشعوب الإسلاميّة (ماذا نُطبّق من الشريعة؟) أو خارجها (إدانة الشريعة بوصفها «متعصّبة وعتيقة وظلاميّة»).

إنّ الشريعة لا تعني «القانون» بالمعنى التّقني للمصطلح؛ بل الطريق الصحيح، أو المقصد القويم، الكفيل إذا ما احترمت أحكامه، بقيادة المؤمن نحو الجنّة.

ومع ذلك، فإنّ الشريعة الإسلاميّة بوصفها مؤسّسات اجتماعيّة (فقه)، تشكّلت عبر القرون في شكل بنات راقية، علينا تنظيم روحها.

والغرض من الدراسات المعروضة هنا ليس كتابة «دليل» أو «رسالة» حول الشريعة الإسلاميّة؛ بل النفاذ إلى جوهرها من خلال الإحاطة بهندستها، وأنماطها في الاستدلال والاشتغال.

ومن هنا تأكيدنا المبدئي على الفضيلة الأساسيّة، أو اللاهوتيّة إن جاز التعبير، للإسلام: العدالة؛ فالعدالة هي ما يؤسّس مبادئ الشريعة الإسلاميّة وهي مستمدّة من أصليّ الشريعة الإسلاميّة (القرآن والسنة)، ولكن أيضًا من التفكير الرامي إلى توسيعها (التنوع المنهجي) وتطبيقها (الالتباس بوصفه تكيّفًا).

إنّه التوسيع الذي ولّد تناقضات كثيرة هددت بانحلال الإسلام، ونقص الاختلافات التي وإن كانت من الناحية المنهجية تكيف المعايير مع تطوّر المجتمعات، إلّا إنّها تشكّل خطرًا إذا انساقَت إلى الابتداع.

ومن هنا، ومن وجهة نظر ظاهرية، فإنّ التساؤل الأساسي يتعلّق بالالتباسات الناشئة عن هذه التعددية في المقاييس، التي لا بدّ أن نتساءل عمّا إذا كانت تفضّل سلاسة الشريعة، أو هي تنحو حالياً في بعض المناطق نحو إلغاء تشريعات الإسلام الكلاسيكي: تعدّد أنظمة القضاء ومشاكل الدولة في تقنين الفقه وقوانين المرأة والتعاقد الدولي في نطاق العولمة وحقوق الإنسان.

لكن التوق إلى العدالة، في حماسه العميق، يؤدّي إلى تقديس النصّ - التقيّد الحرفي بالنصّ - التي تصل أحياناً، في الخلافات المعاصرة، إلى حدّ الصراع الدموي.